75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد الخامس - العدد الرابع ١٣٩٧-١٩٧٦

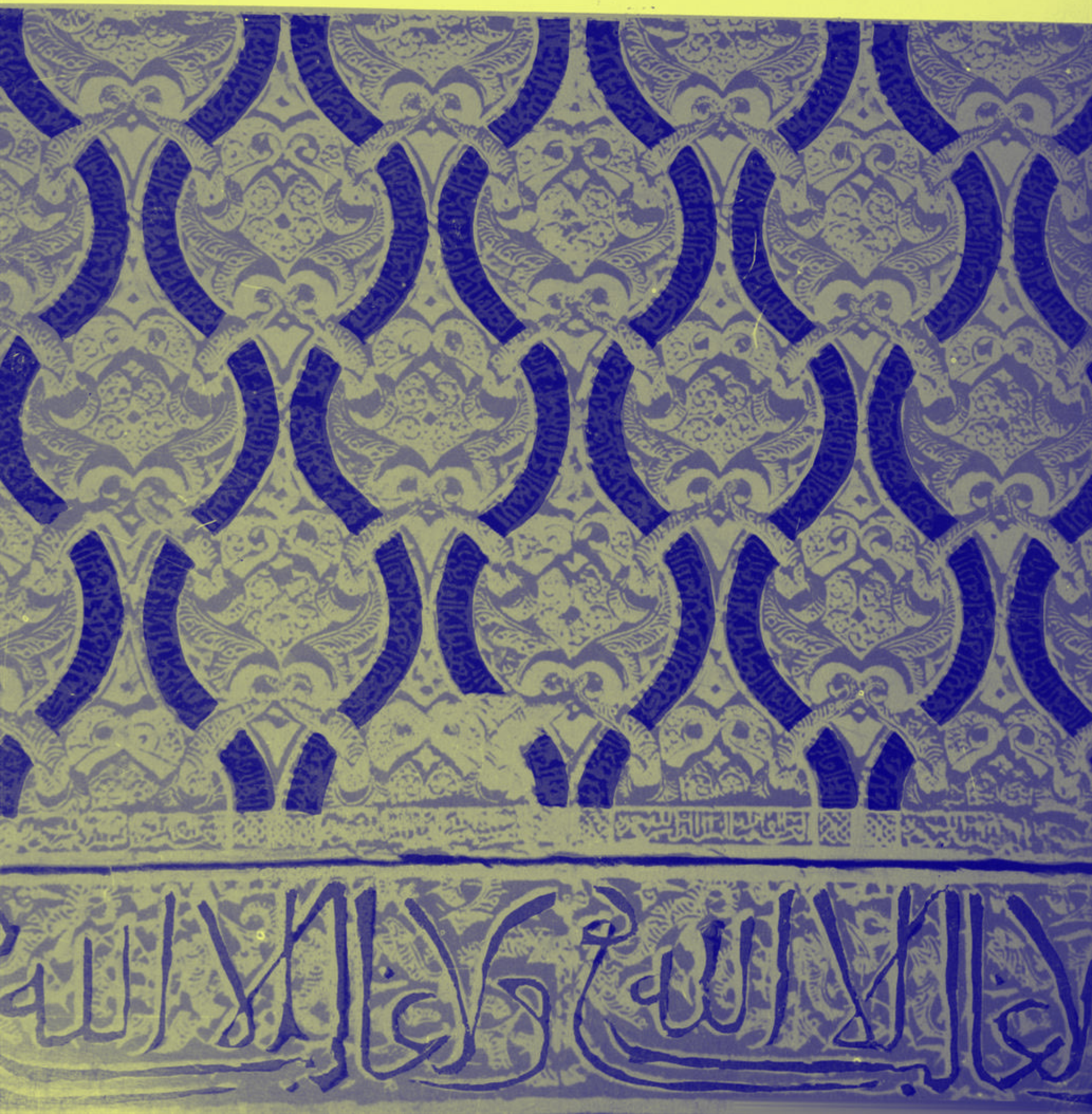

ثلاثة أذكياء كبراء : البيروني وألبير الكبير*

مقال في النموذجية المقارنة للمستشرق لوي كارديه

بقلم المستشرق الفرنسي

لوي كارديه

ترجمة الدكتور

اكرم فاضل

شخصية البيروني :

لن الجأ الى تفصيل ما كانت عليه حياة ابي الريحان البيروني ومؤلفاته ، اذ بوسعنا ، كما اعتقد ، اعتبارها معروفة كافية . ولد ابو الريحان في ضاحية من ضواحي كاث ، عاصمة الدولة الخوارزمية (١) ، ٣٦٢هـ - ٩٧٣م ، ومات بلا شك في غزنه - عام ٤٤٢هـ - ١٠٥٠م على وجه الاحتمال (٢) . واحتفل العالم بذكراه الالفية احتفالا مهيبا عرفناه ... تعددت المؤتمرات والندوات لتكريمه ، في افغانستان والاتحاد السوفياتي ، وبصورة خاصة في ايران وباكستان . وتحدثت عنه كبريات الصحف العالمية . واستميح القراء عذرا بالتاسف على واقع ان اي لقاء رسمي له مداه لم يحدث في الاقطار الغربية نهوضا بواجب تكريم البيروني . وهنا احيل من يشاء الحصول على فكرة اجمالية على الاقل ، عن هذه الشخصية الفريدة الطراز ، الى العدد الفخم من مجلة اليونسكو Le Courrier de l'U.N.E.S.C.O. الذي كرس للذكراه - حزيران ١٩٧٤ .

وارشد من يرغب في الاستزادة الى مقال جاك بوالو ،الذي عين المراحل الكبرى لحياته ونشاطه العلمي .

ان الاقطار الاسلامية بتمجيدها آثار البيروني الرئيسية التي وصلت الينا ، قد شعرت شعورا حادا بالرسالة المفعمة بالامل التي خلفها لها ، وبعالمية رسالته . وكانت اللهجة الخوارزمية هي لغة البيروني الام . وقد اضطر الى تعلم لغتين للثقافة ، هما الفارسية والعربية ، وآثر العربية ، بتدبر وتامل ، كوسيلة للتعبير عن اعماله وابحاثه العلمية . وهو بالاضافة الى ذلك يعالجها بطرافة وظرافة . وكان نصيبه نصيب الانسانيين Humanistes المسلمين في القرنين الرابع والخامس الهجريين الذين شملتهم رعاية الاداب والعلوم والفنون من الامراء . وكانت له فيما كانت له بعض الميول السياسية . وهذه الميول هي التي جعلته يختتم ايامه في غزنه ، في بلاط الامراء (او السلاطين) الغزنويين ، والى مسعود بن محمد الامير (او السلطان) المسود ، اهدى سفرة الكبير في الفلك(٣) .

ذلك ان البيروني كان قبل كل شيء عالما ، عالما كبيرا للغاية . هل نحتاج الى ان نقول عنه كان رياضيا فلكيا طبيعيا عالما بمساحة الارض (مساحيا) ، متخصصا بالعلوم الطبيعية . بل انتروبولوجيا ؟ كان كل هذا بل اكثر من هذا(٤) . كان بيك دلاميراندول المسلم Pic de la Mirandole . اذا شئتم . ومالي لا اقول ان هذه الموازنة ستظل سطحية؟ (٥) .

ثمة علماء اكفا مني عالجوا العطاء العلمي الخالص للبيروني وبوسعهم ان يعالجوه في المستقبل . وكان عطاء هائلا . ومن المؤكد انه ساهم في تقدم مختلف الفروع العلمية وذلك بفضل

(*) القديس البير الكبير احد اشهر الفلاسفة والعلماء في العصر الوسيط ، ولد عام ١١٩٣ في لونجن (سواب) ، من اسرة كونتات بولستات ، ومات عام ١٢٨٠ في كولون ، حيث انتخب رئيسا للكهنة .

دخل الرهبنة الدومنكانية عام ١٢٢٢ ، وشرع في تدريس الفلسفة واللاهوت في راتيسبون وستراسبور وكولون وفي پريس حيث اقام ثلاث سنوات : وسمع له جمهور غفير ، فاضطر بعد ذلك الى القاء المحاضرات في الهواء الطلق .

كان استاذ توما الاكويني ، ولم ينفصل انتاجه عن انتاج تلميذه النابغة .

جرد البير الكبير اعمال العرب الذين حملوا الى اوربا ترجمة اعمال ارسطو . وبهذا استطاع لم شعث الفلسفة الارسطوطاليسية .

وكان تطلعه الى العلوم شديدا ، والحرارة التي بثها في الابحاث التجريبية كبيرة . فالكيمياء مدينة له باستكشافات هامة ، ويقال انه خلق انسانا آليا عجيبا ، له القدرة على المشي بل على الكلام . وقد اتهموه بالسحر ، وما زال يحمل اسم الساحر ، بين البسطاء الذين يراجعون معميات السحر في وصفات (اسرار البير الكبير) و (اسرار البير الصغير) .

لاروس القرن العشرين

استعماله طريقتي الاستقراء والاستنباط ، وعلى الاخص طريقة الحدس (في الرياضيات) بصورة رئيسية) حيث تتجلى عبقريته وقد أتقن ادوات القياس وأحسن القيام بعدة عمليات حسابية وتجريبية ....

والاكثر من ذلك تعطشه الى المعرفة الموائم كل المواءمةلروح العصر العباسي وهو في ذروته (اطلب العلم ولو كان في الصين) وتمكنه من اجتياز حدود دار الاسلام غربا في الارض .. تعلم تعلم السنسكريتية (وكان عمره ٤٥ سنة) ، وتجول في اعماق الهند ، ونفذ فيها الى الثقافة الالفية . وترجم كتبا منالعربية الى السنسكريتية ، ومن السنسكريتية الى العربية (٦) .

وترك لنا كتابا مطولا في العلم والفكر والتصوف الهندية ، التي ما زالت الكثرة من تحليلاته محلاعتبار(٧) . وهكذا انتصب كالطود الشامخ بوصفه رائدا ، وتقدم عصره بثمانية او تسعة قرون ، وذلك بدراسة مقارنة للثقافات التي تتلمس سبلها منذ بضع عشرات من السنين .

ليست نيتي منصرفة الى عرض مكتسبات البيروني العالم ومستكشفاته ، وانما الى رسم بعض الملامح من شخصيتـــه الثقافية ، بل الروحية . وفي الواقع كلما بدا عطاء انتاجهالعلمي اشد وضوحا ، بدا لي اشعاع شخصيته اعظم اشراقا ورونقا، بل اكثر جاذبية ايضا . والاكثر من هذا ان هذا المفكر يظل يجلو لعيني هذا المفكر من العصر الوسيط اللاتيني او ذاك ، مـن قرنين متاخرين عن البيروني .

ومن عبث القول التحدث عن ابي الريحان الفيلسوف . وايا كانت الحالة ، فلم يكن قط فيلسوفا ، وان استقلاله تجاه الفلسفة يبقى تاما . وفي فهرسة اعماله التي اختطها بنفسه بعض العناوين التي تشير في الواقع الى موضوعات فلسفية .

واحدها الذي يحمل ابرز الشيات الخاصة وهو رسالة في « دلالة اللفظ على المعنى » لا نستطيع ان ننفي عنه تهمة معالجة مشكلية الفلاسفة . مشكلة « الفلاســفة الهلينيين المسلمين » . واعترف علاوة على ذلك بانني لم تتح لي فرصة استشارة مخطوطة حيدر آباد حول رياضة الفكر والعقل . ومن باب اولى لنا مساءلة انفسنا عما اذا كانت القضية قضية مؤلفات فلسفية بكل ما في الكلمة من معنى ، ام مسالة تفكير عالم حول طرقه في البحث واستعماله عقله . ولكن ها هي مؤلفات ابي الريحان العظمى التي وصلت الينا لا تعدم وسيلة بعث اهتمام الفيلسوف المعاصر بها بشكل او بآخر .

وليست المسالة مسالة فلسفة العلوم او تاريخ العلوم فقط. فانا ابغي التحدث عن بعض المواضيع ذات الصبغة الفلسفية (وليست المسائل العلمية) التي تومض ايماضات حدسية ، في المدونة البيرونية . وقد ضربت على ذلك ثلاثة امثلة متميزة (في بحث قدمته الى مؤتمر طهران) :

١ ــ (خطرات ابي الريحان ، انطلاقا من اسس علمية ، حول عدم ازلية العالم كما يفط به الكتاب المقدس) .

٢ ــ (مفهوم الطبيعة ، بهدف « شخصيتها » ربما اكثر من الاقتضاء ، ولكن مع الحرص الدائم على اخضاعها لغاية تفوقهـــا) .

٣ ــ (الارتياب من نظرة مادية شكلية للاشياء محرومة مـن المرونة كما لو كان معنى من عدم الاستمرارية ناجما من تخمينات رياضية عجيبة سيقدر له ، بصورة حاسمة ، ان ينفي الصلة بين المادة والشكل او يفنيها) :

وهناك امثلة يمكن البحث عنها . ولكن الامثلة التـــي ضربتها سابقا والتي استعرتها اساسا من بعض نصـــوص « تحقيق ما للهند من مقولة في العقل او مرذولة » و « الاثار الباقية عن القرون الخالية » وبصورة ثانوية من « تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن » تظهر ان البحث العلمي لدى البيروني قد تجاوز خطته نفسها ــ ولكن دزن انفصام ــ الى « منافذ فلسفية » . وهذه المنافذ جادت بكل ما لديهالخدمة بحث العالِم . وفقا لاية اقطاب رئيسية ؟

محاولة موازنة : شروطها

استطيع القول بجدوى عقد بعض الموازنات التوضيحية ، عبر الزمان والمكان :

ربما تكون موازنات مع بعض اساتذة النهضة الغربية ، ولكن بادىء بدء ، وبصورة معمقة ، مع بعض مفكري العصـر الوسيط المسيحي العظام : وهنا يرد على البال روجر بيكون ، الدكتور الباهر ، ولكني اوثر عليه البير الكبير .

وتشير مختلف مظاهر الاحوال الى ان روجر باعث العلم التجريبي هو اقرب شبها بالخوارزمي العظيم البيروني . ولكني اخشى مع ذلك ان تصبح مضاهاة هذا بذاك شكلية اكثر منها حقيقية ، كما لو قابلنا البيروني بيبك دلا ميراندول بعـض الشيء . باختصار ساوضح رأيي فورا . فعبـــر القـــارات والقرون يخيل الي ان مقارنة البيروني بالبير طافحة بالمعارف واحيانا بالمعلومات البالغة الطرافة والحداثة .

ان الخواطر التي سادحوها لا تعني مطلقا انها تمثل عملا تاريخيا . فليست المسالة مسالة بحث نقدي ذي ملامـــح احتمالية ، اذ سيكون في هذه الحالة مخيبا للامال . وانما هي بالاحرى « نموذجية مقارنة » . واعتقد طائما مختارا بوجـود عوائل روحية ، وذلك وراء كل اعتبار للتاثير او للثقافة ، حتى للثقافة الدينية . ونستشهد هنـــا بالحـــديث النبـــوي : « الارواح جنود حول عرش الله » .. ان ما آمل تاديته هـــو الدليل على اتصال ممكن بين اللغات ، طالما قام هناك حبمشترك وبحث مشترك عن الحق ، الحق والحقيقة ، وهما من « اجمل اسماء » الله .

نحن تجاه بيدرين للثقافة جد متباينين . تباينات لم تمنع العصر الوسيط المسيحي من تلقي العون الفلسفي الـــذي لا يعوض من الفكر العربي الاسلامي(٨) .

ومما لا ريب فيه كل شيء ان الفلاسفة اناروا اهتمام اهل العصر الوسيط بوصفهم متميزين للاغريق.ولكن تاثيرهم الشخصي لم يكن أقل : وتيارات نظريات ابن سينا في القرن الثاني عشر ، والدراما الرشدية اللاتينية خير شاهد على ذلك . وتوماالاكويني في الجهد الذي بذله في التاليف التوفيقي والتطهيري واستطاع النجاح فيه كان مدينا به طورا لابن سينا ، وتارة لابن رشـــد (بل للغزالي) (٩) . كما كان مدينا لهؤلاء بشطر منادواتهالفكرية مع مختلف التعريفات ، بل بخطة المشكلية الفلسفية .

على ان الظروف الاجتماعية الاقتصادية لتلك الفتـرة لم تسمح او لم تكد تسمح للاتين بوضع الفارابي وابن سينا وابن رشد في مواضعهم اللائقة بهم .

ولو استطاعوا ذلك لجذبهم ولا شك الفلاسفة مسلمون اخرون . وارى ان البيروني كان سيحتل المنزلة العليا . ولم تكن الحال على هذا المنوال . اذ لم تعرف الا نبذ نادرة من

كتاباته . ولم تكن هذه النبذ هي المثلى . واذا كانت قد ترجمت مقاطع من مؤلفاته الكبرى ، فقد جاءت متاخرة . وهذا امر لا نستطيع ايفاءه حقه من التاسف . واذا كان الالتفات اليه جاريا حاليا ففي محله والحاجة ماسة الى حوار ينعقد بين الثقافات .

ثمة ملاحظة تمهيدية : البيروني من القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين والرابع والخامس الهجريين . والمفكر المسيحي الذي يذكرني بالبيروني هو البير ده لونجن Albert de Lauingen المسمى Manus Magister البير الكبير او الاستاذ البير . اما ابو الريحان ، فبرغم المعرفة الضئيلة التي عرفه الغرب بها ، كان له كذلك الحق في ان يسمى البيروني الكبير او الاستاذ البيروني (١٠) .
كان يفصل بينهما قرنان . وكان لابد من هذه الفترة الزمنية ليلحق الغرب بركب المستوى الثقافي للمشرق .

والواقع ان عهد البيروني كان عهد ثقافة عظيمة وانسانية لامعة في دار الاسلام . وكان يقابل ما ندعوه في الغرب نهاية « عصور الحديد » ، لدى انبثاق الفجر المتردد للانبعاث الذي بشر به الزمان . وكان للقرن الحادي عشر اللاتيني لاهوتيوه المتازون ، امثال انسلم دي كانتربري Anselme de Canterbury فلم يعرف ولا استطاع ان يعرف هذا الطراز من الباحث الانساني الذي قدم لنا منه البيروني نموذجين رائعين في شخصيهما . مع تباين نزعاتهما كل التباين وتنوعها .

هذا الطراز من الانسان على وجه التاكد ليس النتاج المحتم لاحوال زمانية ومكانية . اذ ينبغي له وسط اجتماعي ثقافي معين ، ليتمكن من التفتح والازدهار .

انها الصورة العقلية والروحية لابي الريحان ، كما توحي بها مختلف المقاطع من كتاباته التي افادتني بوصفها صوى على الطريق . وساضعها وفق منظور ثلاثي : الروابط بين الايمان والعلم ، الروابط بين العلم والفلسفة : واخيرا استعمال الفلسفة نفسها .

الانسجام بين العالم والايمان

اقول بمنتهى الايجاز : ان العالم الكبير والباحث الجليل البيروني كان في الوقت نفسه مؤمنا عميق الايمان . ولم تكن عقيدته الاسلامية موضع شبهة ، اذ لم يتردد عن الجهد بها وتوكيدها في عدة مناسبات . ونحن نعرف اهتمام الفلاسفة باثبات التوافق بين الشريعة ونظرتهم الى العالم . ولكنهم اتخذوا الشريعة في هذا الصدد بمثابة رموز واشارات تكتسي لدى تمرس الشعب بها بالحقائق المفهومة .

وهذا الحل ، ورغم استناده الى غموض ، ليس باي حال من الاحوال غموض البيروني .

انه يتلقى تعاليم الكتاب المقدس بوصفها معطى من المعطيات . واذا وقع له معرفة استعماله كمجاز فانه مطلقا عن اسرار « معنى خفي » ان يحمله علمه . وقد يحدث له ان يستشهد بابي بكر بن زكريا الرازي عن طيبة خاطر(١١) . وهذا ولا ريب اثبات لاستقلاله العقلي . ولكنه على نقيض الرازي ، ونظرته كلها الى العالم ، وكذلك ملاحظاته الجيولوجية ودراساته المقارنة للحضارات ، لا تكف عن تمجيد الخالق الفرد الصمد الابدي الابد .

جوهر الموضوع : ليست المسالة مسالة عالم راسخ الايمان حتما . وليست القضية قضية عدم وجود انفصام بين الايمان والعلم لدى البيروني ، وانما لشدة ايمانه بالله غمرت ابحاثه العلمية الحماسة والحرارة ، والى الله خالق الكون افضي هذا البحث . ونحن نرى بجلاء انه يشعر شعورا دائما بوجوب جعل مؤلفاته تنسجم كل الانسجام مع تعاليم القرآن ، ولا غرو فالقرآن يقول : « وفي الارض آيات بينات » .

وفي فقرات كتاب تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن ، حيث يعني باقامة البرهان على عدم ازلية العالم ، يصل الى ذروة معالجة الموضوع . فهو يحسب حساب المعطيات العلمية . والاكثر من ذلك ، ان آراءه لها سمات تطورية مرتبطة بافكاره عن الافكار الكونية الهندية العظمى من جهة وبالزمن من جهة اخرى ارتباطا غاية في التعقيد . ولكنه في الوقت نفسه لا يتنصل من تعاليم الكتب المقدسة ، ولا سيما تمسكه الشديد بالايات القرآنية حسب معانيها الواضحة ، التي يعلو له ان يضم اليها اجماع « اهل الكتاب » . ولعله يبرهن اقل ما يبرهن على البداية الزمنية للعالم التي لم يؤمن بها . اما ما يبرهن عليه حقا ضد الفلاسفة (وضد ارسطو) ، ـ وهذا بحد ذاته كثير ـ فهو انعدام الضرورة المادية والميتافيزيكية او المنطقية لازلية العالم ، مع الاحتمال الاكبر لبدايته . وسنجد الموقف الذي اتخذه موسى بن ميمون في كتابه دلالة الحائرين . وبوسعنا ان نرى فيه التجسيد المسبق البعيد لمشكلية غاية في المعاصرة (انني افكر مثلا في : كيف يمكن اليوم ان تطرح مشكلة وجود الله نفسها ـ حسب راي كلود تريمونتان) .

حسن ، هذا الانسجام بين الدين والعلم نجده تقريبا وفق ذات الاحداثيات لدى الاستاذ البير . ولو توصل البير الى معرفة كتاب تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن لاحب هذا المقطع الذي انشاه البيروني ، في مجال الخلق ، حيث الانسجام مع الكتاب المقدس . ولكان ولا شك قدر التسطير المجازي لايام التكوين السبعة للبيروني ، كما فعل ذلك اوغسطين المصرب عن فترات لا يمكن قياسها تاريخيا .

والحقيقة ان ابا الريحان هو في الاساس عالم بكل ما في كلمة عالم من معنى عصري للكلمة . وانما العلوم الصحيحة ، من اي طبيعة كانت ، هي التي كان يعنى بها . ونراه من بعض الوجوه متقدما على عصره كل التقدم ، بل هو السباق في المعارف التي احرزها البير في القرن الثالث عشر . واذا كان الانسجام قائما بين العلم والايمان ، فيجب علي ان انص حالا على سطح الانطلاق ، ان صح التعبير . انه البحث العلمي الصالح في جو من الايمان ، الذي قاد البيروني الى هذه النظرات الفلسفية الرائعة التي رجع بها تاليفه . انها هي التي ادت به مثلا الى واقعية المعرفة ، والى الفكرة الصحيحة بغالبية الاسباب الثانوية وخضوعها . ولكنه ليس بفيلسوف ابتداء . ولو استطعنا الوصول الى كتبه المسماة فلسفية ، فنحن بمجرد قراءة عناوينها فقط لا اعتقد اننا سنلجا الى تغيير هذا الحكم . سيكون الامر بالاحرى امر عالم بمحض اقوال الفلاسفة ، وهو جدير حقا بتحمل لغتهم وجدلياتهم ، ولكنه لا يتبنى لنفسه مشكلية الفلسفة الا حين تلعب دورا اداتيا نافعا باتجاه اهتماماته الخاصة .

اما البير فعلى النقيض ، اذ انه فيلسوف ولاهوتي قبل كل شيء . والمشكلة التي تراوده هي مشكلة العلاقة بين الفلسفة واللاهوت . وهي ليست في منظورات ابي الريحان . فالاجواء

المختلفة بين المسيحية والاسلام تكشف الغطاء عن الاختلاف دون صعوبة . ولكن الملحوظ على البير ان المسالة ليست لديه مسالة وضع فلسفة جاهزة في خدمة اللاهوت . وفي بعض المجالات يلوح له الاستقراء العلمي شيئا لا غنى عنه حتى في البحث الفلسفي. وهذه ظاهرة نادرة في زمانه وفي بيئته ، ولهذا لفتت اليهـا انتباهنا . ومن هنا ينضم الى لفة البيروني نفسها . اذن سنوازن بينهما بوصفهما عالمين بادىء الامر ، ثم فيلسوفين بعد ذلك .

العلم والفلسفة :

ان ما كان شاعرا به البير ، هو حاجة فيلسوف الطبيعة، الى الارتكان بالضرورة الى الابحاث العلمية ، اذ بدت لـه الرياضيات والطبيعيات ضرورية له كضرورية المنطق . ولا يمكن القول انه كان رياضيا وماديا ، ولكنه حرص على هضم الماضي ومكتسباته . ولم يكن محض جماع . « انه يوضح ويفسر ويكمل وينغمس في عمل حقيقي للاصلاح والترميم » ، هذا ما يقوله لنا ايتيين جيلسون بخصوص مراجع الاستاذ البير العلمية . والاكثر من ذلك : في هذه المجالات المسماة بالتاريخ الطبيعي ، لا يتردد عن القيام شخصيا بالعمل فيها كباحث . فبرهن في هذا الحقل على عقل نفاذ سبار اغوار . فهو يوحي بتجارب الى درجـة التدقق الى « اغناء علم الحيوان بالمعلومات الجديدة » . واذا كان يفسر ارسطو واحكام لومبارد ، فهو شيء اخر غير احد شراح القدماء العظام . كل ما في انتاجه اصيل . وقد مهد السبيل للاستنتاجات المقبلة .

ولكن البير لم يترك لنا كتبا علمية . وانما هي مؤلفـات واستخلاصات فلسفية لاهوتية ، حيث يبدو الكسب العلمي هنا وهناك على شكل معطيات اساسية اعيد النظر فيها . وتهدف طريقته الى اقناعنا بان الفيلسوف ، وتبعا له اللاهوتي (الذي يستخدم الفلسفة بالضرورة في تفكيره الديني) ، لا يستطيعان متابعة عملهما دون التزود بالمكتسبات العلمية التي يتوصلان اليهـا .

اما الاتجاه الذهني للبيروني فشيء اخر . ذلك ان مزاجه مزاج باحث في علوم دقيقة . فمنذ السابعة عشرة من سنيه استطاع معرفة خط العرض لموضع من المواضع . وبعد ذلك باربع سنوات استطاع اتقان الدائرة المتدرجة التي استخدمها ، فعلوم الفلك والمساحة والتعدين والنبات والصيدلة والانثولوجية الم بها كلها ، بل لم يترك حقلا من حقول المعرفة لم يطرق بابه . او لم يدفع الى الامام عجلة كل موضوع ؟ وان ما ندعوه نظراته الفلسفية ليست شيئا اخر غير الفلسفة العلوية للعالم المستنير بايمانه المفكر في موضوعات كبرى .

فقد غاص في خضم الاستنباطات وحدسية العلوم الرياضية وتجارب العلوم الفيزيائية والطبيعية ، فكانت شغله الشاغل وديدنه التواصل .

ولست هنا بصدد تعداد النقاط المحدودة التي عمل على تقدم المعرفة العلمية فيها . انها متعددة . ولقـد احصاهـا الباحثون قبلي . ولكني اتمنى على مؤرخي العلوم ان يحسبوا لها كل حساب . وهناك منظوران ابلى فيهما بلاء حسنا ، وبودي ان اشدد على جدارتهما في اغناء فكر الفيلسوف . قبل كل شيء اسهامه في العلوم الرياضية : هذا ما سماه لويس ماسينيون « انعكاس الاعداد في الفترة اللامنقطعة (....) دراسة الاعداد الاصلية المفردة ، التي لها نوعية تجريبية ، جبرنة (من الجبر) المخيلة الرياضية » . هل اعانته ذرية بعض المتكلمين في هـذا الصدد ؟ او بصورة مباشرة ذرية ابن زكريا الرازي ؟ لا استبعد. ولكن ما هو يقيني ، هو ان حدسية العقل ، التي تلعب دورا بالغ العظم في الرياضيات ، كانت تمور بالحيوية لدى ابي الريحان . ونحن مدينون له بتوجيه العلوم الرياضية وجهـة عصرية » . ولكن المؤسف ان فلسفة عصره ، في الاسلام كما كان وضعها بعد ذلك في المسيحية ، ظلت على حالها متعلقة بارسطو كلمة بكلمة ومتشبثة حرفيا بشراحه . ارسطو الذي كان بالتاكيد فيزيائيا اكثر منه رياضيا . ولو ان هذه المنظورات البيرونية المنفتحة على الانقطاع ، قد تناولتها فلسفة الكينونة وعمل الكينونة ، حيث اتجه اليها البير ، بانتظار تلميذه توما ، فان الانقطاعات الكثيرة التي عملت عملها في العصر الحديث الغربي بين العلم والفلسفة ربما امكن تجنبها .

اما الاسهام الثاني الذي افكر فيه فليس سوى اشياء عابرة في الانجاز الهائل للبيروني . ولكني اعتقده ايحائيا للغاية . ففي كتابه عن الهند ، وفي تفكيره في كونيات الهند ، توصل الى ملاحظة ان نظرية مركزية النظام الشمسي لن تكون لا منطقية مطلقا ، وبوسعها ان تتالف مع الايمان بالخالق ، كما هو شان مركزية الارض في نظر بطليموس . وفي ختام حياته ، ولعله لضيق حدود علم الفلك في زمانه ، اعلن مركزية الارض . ولكن هذه النظرة السابقة لكوبرنيك في الامكان المنطقي لمركزية النظام الشمسي كان يمكن تفادي الكثير من تخبطاتها هذه المرة ، وتجنب الوقير من المحللات التي جاءت في غير محلها ، بل حتى ربمـا كان بالوسع اجتناب قضية غاليلو البائسة نفسها .

اقول ، في نهاية هذا المقطع من البحث : ان العالم البيروني والفيلسوف اللاهوتي الاستاذ البير خلقا للتفاهم بينهما ... كان البير وكانه يترقب خطوط بحث البيروني . ولكن الظروف لم تكتب له الاتصال بالحضارات واللغات الاجنبية ، كما اتيح للعالم بالسنسكريتييات ابي الريحان . ولكن ليس ثمة شك في ان العلوم التي نادى باكتسابها من قبل الفلسفة لتحسن القيام بدورها كانت ستسهل مهمته وتغنيها لو استطاع احراز ما احرزه من العلم متقدمه العظيم . وان احترامهما المشترك لعمل الخالق ، ووافقيتهما المشتركة في المعرفة ، كانت ستدر الثراء ـ في ما وراء الزمان والمكان ـ على التقاء الفيلسوف اللاهوتي بالعالم الذي وحد بين علمه وايمانه .

حرية الفيلسوف :

والاكثر من ذلك : الم يكن للعالم ما يقوله للفيلسوف ، على الصعيد الفلسفي نفسه ؟ ان البير لم يكن فيلسوفا الا لانه لاهوتي . بحيث انه كان ميالا الى تقبل فلسفة يراها اساتذته وكانها فرع بالغ الغنى من فروع العلم ، غـذاها الافلاطـون وارسطو ، وارضعها شراح ارسطو اليونان ، واسهم فيهـا اسهاما رئيسيا فلاسفة الاسلام ، وعلى الاخص ابن سينا . انه راقب هذه الفلسفة وحاسبها وناقشها وطالب اغناءهـا بوسائل شتى عن طريق مكتسبات علمية . ولكنها ظلت بالنسبة اليه معطى له سبق وجود .

نحن على علم بالميول الافلاطونية (والافلاطونية الجديدة) التي حملها البير ، واضطر تلميذه توما الاكويني الى تصحيحها ووضعها في وضعها الصحيح . ولكن كان مدينا بكل هـذا للفيلسوف ابن سينا . وعندما يجد البير في طريقه الى تاليفه او شروحه الفلسفية الخطوط الكبيرة لكونيات ابن سينا ، فانه يعمد ، باجلال واكبار الى تلخيص فحواها : الافلاك السماوية ووحداتها ، دورا لعقل الفاعل ... ولكن لوحظ عليه اكثر من

مرة عدم الاقتناع . ان احترامه للرئيس ابن سينا ، وانفتاحه الروحي نحو كل فكر عظيم منقب عن الحقيقة ، لم يسمحا له بادىء الامر بمناقشة الموضوع . وانما اعاد الكرة عندما اعاد النظر في المسائل معتمدا على تفكيره الخاص في كتابه ، الذي تجنب فيه ـ بعد اعمال روية ـ كل موقف من مواقف معارضة النظرية الكونية لابن سينا حول نظرة الى العالم قائمة على الابداع الالهي العفوي .

نحن نرى ان البيروني قد برهن هنا على استقلال عظيم للغاية . لقد عرف والحق يقال احسن من سواه السياق الثقافي للفلاسفة الشرقيين .

ولكنا سندهش ولا شك لو قلنا له ان نهج ابن سينا هو الفلسفة الاسلامية . وما قلناه عن تأكيده على عدم الازلية للعالم كاف لاثبات ذلك . ويجب ان نضم الى هذا نقده للتحملات كما طرحتها الفلسفة والزمن المستمر . وابن سينا ، اخوه الذي يصغره سبع سنوات ، كان بالنسبة له فيلسوفا يستحق كل تبجيل ، ولكنه كان بعيدا كل البعد عن تقبل كل افكاره . والمراسلات التي تبادلاها معروفة ، في حين كان ابن سينا يبلغ من العمر عشرين عاما بالضبط وابو الريحان سبعا وعشرين سنة .

كانت لهجتها بالغة الحدة احيانا ، وعديدة هي النقاط التي ناقشها البيروني ودحضها ، ليس دون ان يبلغ ، في ما وراء محدثه ، ما يقدر انه طريقة ارسطو نفسها .

انها قضايا علمية قبل كل شيء تلك التي اثارها البيروني ، ولكن دون ان يلاحظ امتداد الفلسفة كما ينبغي : فالمناقشات حول الوزن والعناصر الاربعة وحركة الافلاك السماوية ، تنفتح على ازلية العالم . وهو باسم نسبية المعارف على الصعيد المحسوس يأبى الرفض بتمحيص الوجود الممكن « للعوالم الاخرى » . فهل ينبغي ان ناسف على انه انقيادا لمزاجه الخاص لم يمحص القضايا المثارة ، ولم يضعها في اطارها الفلسفي ، ويعمل فيها فكره ؟ مما لا ريب فيه حسبانه ان بمقدوره دحضها بواسطة استقراء العلوم المادية ، دون رؤية الحدود التي تصطدم بها هذه العلوم دائما ، حول حركة الافلاك مثلا واتفاقا مع استنتاجات ارسطو . ولكنه لم يتقبل طريقة ارسطو ولا المنهج اللذين سار عليهما .

ولعله كان في سبيل استكشاف ارسطو اخر اكثر ارسطاطاليسية من ذلك الذي قدمه الشراح ...

ان مناقشات البيروني ومداحضاته لا يمكن ان تضع التآليف العبقرية الفلسفية التي تركها لنا ابن سينا موضع مظنة ، ولا ما خلفه لنا من اسهام علمي في الطب والفلك مثلا . ولكنها جعلتنا حساسين تجاه بعض الهفوات اثناء انطلاق هذه الاستنتاجات، واننا دون ان نرفض ديناميكية التحليلات موضوع البحث وتشبث هذه المناقشات بالحقيقة يمكن رسم خطوط اخرى للتوضيح : قائمة على كون الوجود وليس على حال الوجود . على انبعاث خلاق بالمعنى المطلق ، وليس على عمله بحكم « الضرورة المطلقة » .

عبر هذه « المراسلات » عاب ابن سينا على البيروني ان ترك نفسه تتأثر ببحي النحوي Jean Philopose فلم يتردد البيروني في اجوبته في الدفاع عن يحي النحوي ، بل في الاستناد اليه . وقد برهن لنا الاستاذ ريتشارد فالصر على ان هذا النحوي كان بالغ التأثير في ابي يعقوب الكندي الملقب بفيلسوف العرب ، وهو الوحيد بين الفلاسفة الذي دعم لا ازلية العالم .

وان ايراد البيروني اسم يحي النحوي مقابل ارسطو واضح القصد . انه يهدف الى اثبات انه بموازاة التأثير الكثيف ليونان القديمة ، فان المسيحية الاسكندرانية كان لها كذلك تأثير في بعض تيارات الفكر الاسلامي .

استبيح لنفسي مع ذلك التأسف أسفين . التأسف الاول : على ان هذه المناظرة الرسائلية مع الفتى ابن سينا لم تحمل البيروني على توجيه فكره الى فلسفة الطبيعة والاستفادة من بعض المعطيات التي اطلقها من عقالها ـ فاحسن اطلاقها ـ الكندي . وان مسكويه العلمي ، وهو اكثر سعة افق من محصول الكندي ، كان يمكن ان يسمح له ولا شك بالانتهاء الى نهاية حسنة . ولعل معركة التهافت المشهورة كان يمكن اجتنابها سلفا . التأسف الثاني : على ان هذه الحرية في الحكم التي برهن عليها ابو الريحان لم يصل علمها الى اللاتين ، ولا سيما البير . فالتراجم العربية اللاتينية قدمت الفلسفة الى العصر الوسيط المسيحي ككتلة واحدة ، بل ككتلتين ، اعني بهما ابن سينا وابن رشد . فنوقش هذان وحظيا بالاعجاب خاصة وهما اهل له . ولكننا نعرف الثمن الذي دفعه الفكر المدرسي والازمات التي اجتازها . ولعل الاستاذ البير ، وهو ينتظر التوضيحات الاكمل من توما ، هو الذي تبين كيفية اجتياز هذه الازمات دون تحاهل عظمة الفيلسوفين وعظمة الافريق التي نادى بها الفيلسوفان . ولكن البير ظل دائما وكأنه محرج في توضيحاته بخصوص تماسك التحليل في طريقة ابن سينا ومتانة اسرها . وهنا ايضا يتلاقى البير والبيروني في اتجاه واحد للنقد والبناء . وان الحرية في البحث التي يدين بها الثاني لمناهجه في البحث والاستنباط العلميين كان يمكن ان تكون للاول منجم فائدة في المعرفة .

* * *

ان اختصاصيي العصر الوسيط اللاتيني سيفاجاون ولا شك اذ يرونني آنس في الرجوع الى البير الكبير واوثره على معاصره روجر بيكون المسمى ب « الدكتور الباهر » . ذلك ان روجر كان الباعث الاعظم في الغرب على العلم التجريبي ، وبقيمته التي لا تحل محلها قيمة . فهو احد الاوائل الذين شددوا على اهمية الرياضيات . وهنا مجده . لقد انتقد البير في حينه اعنف انتقاد . ولا شك ان مزاجه العلمي اقرب الى مزاج البيروني .

ولكن رغم نقطة الالتقاء هذه لم تعد اسرة العقول هي نفسها . اذ اصبح العلم التجريبي لدى روجر الاداة بل الاطار لضرب من « الفلسفة الموحاة » (في العصر الادمي A l'age adamique)

ومن هنا ينطلق لون من التقديس للعلم التجريبي . وكيف لا تثار كل الاخطار حين تتضارب الاراء الاعتباطية في هذه الحالة؟ وعدا ذلك ، فان الاحكام التي حكم بها روجر على الخصوم كانت شديدة . وازدراؤه لمعظم معاصريه يمتد مرحا طروبا الى كل اولئك الذين سماهم "Les Sarrasins" العرب المسلمين المغاربة او الحنطة السوداء . وليس لديه شيء مماثل للانفتاح العقلي الذي لدى البيروني ، وللعطف الذي حمله بين جنبيه وهو يرتاد الارض الهندية وافكارها ، والتي شهد بها البير حين تلقيه كتاب الشفاء لابن سينا .

ولعلي ظالم للدكتور الباهر ، ويمكن الاعتراض على رأيي. ولكن يخيل الي ان بوسعي ان اقول على كل حال ان حدة مزاجه المقلي وشدة بوادره لم تجعلا منه رجل حوار ، على نقيض البيروني والبير .

* * *

لقد اشرت في البداية الى ان هذه الدراسة ليست دراسة تاريخية ، وانما هي دراسة نموذجية مقارنة . وقد افضت بي الى التاكيد على ان معرفة البير للفكر البيروني كانت في حيز الامكان ، متمناة ، وبالتاكيد مثمرة . كانت ستعود بالجدوى على الفلسفة ، التي كانت فلسفة اعظم علماء اللاتين في العصر الوسيط ـ وكان سينتج عنها انضمام مناهج ومكتسبات الى العلم ، ولكان هذا جنب الفلسفة العصرية الغربية العديد من المآزق . ولكن واحسرتاه ! فالبيروني على نقيض الفلاسفة لم يكد يكون معروفا ، او عرف معرفة مغلوطة من قبل اللاتين . والنصوص التي ترجمت عنه آنئذ ـ وبصورة متاخرة كذلك ـ تحيل الباحثين قبل كل شيء الى بعض « فصوله الهامشية التي تمس السحر الطبيعي والتنجيم القضائي وفن الطلاسم » . بحيث ان البيروني اعتبر في الغرب ساحرا بين السحرة . ومن المثير ان نلاحظ ان ذات سوء الفهم وقع احيانا تجاه البير ، الذي عزيت اليه ، دون اي مبرر ، بعض الوصفات (حتى الشعبية) للطلاسم والتعاويذ والمعميات . ذلك لان كلا منهما كان متقدما على عصره . وان تفتح عقليهما المشترك ، وتلوق كل منهما للبحث والتجريب حملا معاصريه على انيخلموا على كل منهما هالة من الاعجاب والتعجب . ولكن ما لم يكن ممكنا في القرن الثالث عشر يصبح في حيز الامكان هذا اليوم . اليس من اكرم التكريمات التي تقدم لتخليد ذكرى البيروني اعادة فتح باب الحوار ، انطلاقا من اعماله ؟ هذا الحوار الحقيقي الذي يشمل الثقافات التي افتتحها العصر الوسيط ولا شك ولكنها لم تصل الى قرارها ؟ انها جوقة موسيقية مؤلفة من عدة اصوات يمكن ان يسمعنا اياها البيروني وابن‌سينا وتوما الاكويني ومعهم آخرون من اضرابهم . ليس ذلك لاضفاء الروعة على ماض انقضى فحسب ، وانما كذلك لتوضيح مشكليات اختلط حابلها بنابلها . وهناك مسائل كثيرة راهنة يمكن ان تجد لديها عناصر جوابية .

التعليقات

(١) هي اليوم جمهورية البكستان السوفياتية .

(٢) وليس كما قيل عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨ د . ج ،والو ، البيروني دائرة المعارف الاسلامية ، ط ٢ (المقالة المكثفة جدا والمراجع القيمة) ج١ ، ص١٢٧٣–١٢٧٥ .

(٣) كتاب القانون المسعودي في الهيئة والنجوم .

(٤) انشأ بنفسه فهارس لاعماله ؛ وكذلك فهارس لابن زكريا الرازي) ولا يعد بوالو أقل من ١٨٠ عنوان كتاب من كتب البيروني او المنسوبة اليه .

(٥) يوحنا پيك الميراندول عالم ايطالي ، ولد في قصر ميراندول قرب مودين . وقد تميز بنبوغه المبكر وبجراة نظرياته في الفلسفة واللاهوت (١٤٦٣/١٤٩٤) .

(٦) انظر بصورة خاصة ترجمته : المشروحة ، ليوغا ـ سوترا لبتانجالي ، ترجمة كتاب بتنجال في الخلاص من الارتباك، نص لم ينشر (راجع : بوالو ؛ البحث الفهرسي » ـ ٩٨) يشير اليه لويس ماسينيون في مقارنة 'الصوفية باليوغا (بحث في نشأة المصطلح الفني في التصوف الاسلامي Essai sur les origines du Lexique technique de la mystique musulmane).

(٧) كتاب الهند الكبير او تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة .

(٨) حسبنا في هذا المجال ذكر اعمال اتيين جيلسون ،وبصورة خاصة : « لماذا انتقد القديس‌توما القديس‌اوغسطين ؟ ».

(٩) نحن نعلم ان كتاب « مقاصد الفلاسفة » للغزالي وحده ترجم ترجمة كاملة الى اللاتينية (منذ القرن الثاني‌عشر). وهذا ما خلع على الغزالي (حجة الاسلام) اسم‌الفيلسوف في العصر الوسيط اللاتيني ـ جزافا !

(١٠) من هنا جاءت التسمية السخيفة للبيروني البيورنون Abibornon على لسان لافونتين .

(١١) يرد ذكر اسم ابي بكر بن زكريا الرازي بين « زنادقة الاسلام » وفي الغرب يسمى بالطبيب الرازي .